

المحاضرة الثالثة حول:

الأوضاع الثقافية في  
الجزائر  
خلال العهد العثماني

**تمهيد:**

حين نتكلم عن مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر خلال هذه الفترة، لابد من الوقوف على تفاصيل مختلفة منها: التعليم ومستوياته، بالإضافة إلى مشكلة الثنائية بين السكان الأصليين والأتراك، ضف إلى ذلك التطرق إلى بعض الظواهر السلبية التي مست رجال العلم والدين آنذاك وما تترتب عليه من تراجع الإنتاج الفكري والعلمي وتزعزع مكانة رجال العلم والدين.

- التعليم ومستوياته الذي تعدد وتنوع بتعدد المؤسسات التعليمية في الجزائر خلال العهد العثمانية والتي كان لها الدور الكبير في ازدهار وتطوير الحركة الثقافية للمجتمع الجزائري آنذاك لتحملها مهمة تعليم الفرد و تكوينه و من بين هذه المؤسسات نذكر:

**1- المساجد:**

تعتبر المساجد من أهم المؤسسات الدينية ونواتها وبدل على مصلى الجماعة وهو كذلك المكان الذي يتم فيه تحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفروض الدينية، وباقي العلوم التي لها علاقة بحياة المسلمين (أحمد مريوش، ص11)، ومن بين هذه المساجد الجامع الكبير الذي كان مقرا للمفتي المالكي، بالإضافة إلى جامع القصبة البراني مقابل القصبة والذي جدده الداوي حسين، ووسعه وكان يصلي فيه موظفو القصبة وكذا نجد أيضا جامع كتشاوة.

أما النوع الثاني من المساجد فقد قام بتأسيسه الأثرياء من الناس ومن بين تلك المساجد نجد مسجد محمد الباي الكبير في معسكر، أما بخصوص النوع الثالث من المساجد نجد تلك التي قامت المؤسسات الخيرية بتشيدتها كعمل مكمل لما قام به الأغنياء والولاة وكان هذا النوع من المساجد متواضعا مبني بالحجر والجبس وصوامعه منخفضة و كان عدد كبير منها لا يحصى و لا يعد منتشرة في كل الجزائر في نهاية العهد العثماني.

## 2- الزوايا:

احتلت الزوايا مكان الصدارة إلى جانب المساجد في تلك الفترة بين المراكز الثقافية إذ يعرفها ابن مرزوق الخطيب: "بأنها تلك المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين"(ابن مرزوق الخطيب، ص413).

قد كانت الزوايا مقسمة إلى قسمين وكل قسم منهما يقوم بدور معين فالقسم الأول يقوم بتحفيظ القرآن الكريم وترتيله وبلجأ إليه في الغالب الذين لهم معرفة بالحروف الهجائية وبعض آيات الذكر الحكيم، أما القسم الثاني فإنه يقوم بتدريس الفقه والعقيدة وقواعد النحو الصرف والمنطق والفلك (أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص249). إضافة إلى التعليم يتعدى دور الزوايا إلى المشاركة في الجهاد وهو أمر لا يمكن إنكاره وتجاهله؛ ذلك لأن الزوايا كان لها دور في صناعة التاريخ(نصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لولايات المغرب العثمانية، ص73-75).

انتشرت الزوايا في كل البلاد الجزائرية وكان أهمها زوايا الحواضر العلمية، فقد كانت هناك زوايا سهل متيجة المحيط بمدينة الجزائر إضافة إلى زوايا منطقة القبائل وزوايا من مدن كبرى أخرى مثل قسنطينة الجزائر وتلمسان على متبات هامة تطورت بفضل كتابات مدرسيها وعلمائها، كما كانت تحمل في طياتها مخطوطات نادرة في مختلف العلوم ساهمت بشكل كبير في نشر الثقافة والمعرفة بشكل واسع (أبو القاسم سعد الله، ص270)، أما الدروس بها فقد كانت تستغرق كل اليوم لا ينقطع فيها شيخ الزاوية عن الشرح وكانت عبارة عن مجالس علمية يكون فيها الشيخ في الوسط ويلتف حوله الطلاب (إحسان مختار الحواضر و الأمصار الإسلامية الجزائرية، ص135).

### 3- الكتابات:

تعتبر الكتابات من أكثر المراكز التعليمية انتشارا في الفترة العثمانية حيث أقبل عليها عدد كبير من الجزائريين (فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص21) وكانت الكتابات تؤسس من طرف رجال الدين وحفظة القرآن إذ كانت منتشرة في أغلب المدن والقرى الجزائرية وتكاثرت في المدن كثرة مفرطة حتى كانت تعد بالعشرات في قسنطينة وبجاية وتلمسان (شوقي ضيف، عصر الدول وفيها يتعلم الأطفال سواء كان ذكورا أم إناثا القرآن الكريم ويكتبونها على الألواح الخشبية المطلية بطين الصلصال بأقلام من القصب و صمغ من الصوف المحروق (يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر، ص213). الذي يتولون التدريس بهذه الكتابات كان

يطلق عليهم اسم الطلبة في بعض الجهات والفقهاء في جهات أخرى أو المشايخ في غيرها الآخر(يحيى بوعزيز، ص55).

#### 4-المدارس:

عرفت المدارس انتشارا واسعا خلال العهد العثماني حيث كانت جل المدن والأرياف الجزائرية بها مدارس وكان إنشائها يتم على أيدي المحسنين وتمولها الأوقاف التي كان يحبسها أصحاب النفس الخيرة والتي تهب عقاراتها لبناء هذه المدارس، ولم يكن للدولة العثمانية شأن بها(فاطمة دخية، ص21)، وقد تنوعت العلوم والمعارف التي تدرس بتلك المدارس الى ثلاث أصناف:

✚ العلوم الدينية مثل: تحفيظ القرآن الكريم وشرحه وتفسير الحديث وتعليم الفقه.

✚ علوم اللغة والآداب كالنحو، الصرف، البلاغة والعروض وقواعد الإنشاء باعتبارها أداة ووسيلة لإتقان العلوم الدينية.

✚ العلوم التطبيقية والتجريبية كالفلك، الطب، الهندسة.

كانت تلك المدارس كلها تتخذ منهجا تعليميا واحد دون أن تكون لها هيئة مركزية لتوحيد العلم، كما كان المعلمون والشيخوخ كثيرا ما ينتقلون من منطقة إلى أخرى فالذي كان يعلم في الجزائر نجده يعلم في قسنطينة أو وهران(مصطفى همشاوي، ص197).

وكان تلاميذ العلم يلازمون مدرسيهم وشيوخهم لسنوات عدة لغاية إتمام العلوم الدينية والفقهية وغيرها وتمنح للتلاميذ المتفوقين الإجازة التي تؤهلهم حق التدريس(مؤيد محمود، أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني، ص436).

ومن أشهر المدارس نجد مدارس مدينة تلمسان والتي كان عددها 05 مدارس ثانوية وعليا، إضافة لها وجد الفرنسيون 50 مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالى وهما مدرسة أولاد الإمام ومدرسة الجامع الكبير(أحمد مبروش، ص15) كما أن مدينة الجزائر كانت بها 299 مدرسة يرد سبها 5583 تلميذ، بالإضافة إلى مدينة قسنطينة التي كانت إشعاعا ثقافيا خاصة في عهد أحمد باي الذي أسس المدرسة الكتابية 1776 لتعليم مختلف العلوم والتي لها نظام خاص وكان معلم المدرسة يتمتع باحترام كبير بسبب معرفته ومهنته المحترمة.(أبو القاسم سعد الله، ص276).

حيث أخذت هذه المؤسسات تنتشر على نطاق واسع في الجزائر، وكانت بالإضافة إلى ذلك حلقات التدريس في المساجد تلعب دور كبير في نشر العلوم خاصة الفقهية منها، وما تعلق بأمور الدين، حيث كان لكل أستاذ مشهور سواء كان في مدرسة أو جامع أو زاوية حلقة تدريس التي كانت تعد أنذاك من أهم منابع التي ينهل منها تلاميذ وطلاب القرن التاسع الهجري(09 هـ) وهو نفسه المنبع الذي يغذي أجيال المتعلمين المسلمين لثقافة تقليدية، وقد غلبت الروح النظرية على هذا النوع من التعليم؛ الذي لم يخرج عن علوم الدين واللغة والإهتمام بالفروع الفقهية على مذهب الإمام مالك.

- من المعروف أن الأتراك كانوا حنفية المذهب ورغم ذلك لم يفرضوا مذهبهم على الناس ولم يعملوا على نشره بل قاموا بتعيين مفتي مالكي وتقريبه من المفتي الحنفي ومنحوا له سلطات واسعة، ومن ذلك أنهم قربوا إمام وخطيب الجامع الكبير بالعاصمة (محمد الخروبي) وإستعملوه في السفارة بينهم وبين أبي عبد الله المهدي الشريف الحسني ومنحوا له سلطات

واسعة، فورد المغرب ودخل مدينة فاس، ومن ذلك أيضا تقريبيهم لعائلة الفكون وإعطائهم مختلف الإمتيازات وأهمها قيادة ركب أهل الحج آنذاك.

- من بين الإنحرافات التي برزت في هاته الفترة على رجال العلم والدين ظهور عقيدة المرابط وإنتشار الزوايا وإفتتاح عهد التصوف العملي، وهذه الظاهرة التي زاد إنتشارها في الثلاث (03) القرون اللاحقة لبداية العهد العثماني في الجزائر.

وتميزت هاته الفترة بالمبالغة في الإعتقاد بالشيخ وإبتداع الحضرة والأوراد وإنتشار الأضرحة وهو ما ترتب عليه نتائج خطيرة أثرت على الحركة الفكرية والعلمية في تلك الفترة وأهمها مايلي:

✚ تبسيط المعرفة وغلق الإجتهد والاكتماء بالحد الأدنى من التعليم، فأصبحت الزاوية تنافس الجامع والمدرسة، بل تفوقت عليهما فجأ الجميع إلى تبسيط العلوم المدرسية، وزاد التنافس بين الطرفين بحثا على لقمة العيش، فبينما كانت دور العباداة في أوربا تدافع عن نفسها كانت الزوايا في محل الهجوم. فهذا الإنحراف وإنتشار التصوف العملي والغلو في نسبة الكرامات للأشياخ جعل طائفة من أهل العلم المحافظين تنتفض ضد هذا الحالة العامة وتدعوا إلى الرجوع إلى التصوف الصحيح أو التصوف السلفي، ومن أبرز هؤلاء العلماء: أبي الحسن الصغير الذي ألف كتابا إنتقد فيه البدع الصوفية وهو ما لم يرضى الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، الذي ألف كتابا يرد عليه، ومن أشهر من إنتفض أيضا ضد التصوف العملي الشيخ محمد بن

مرزوق في رسالة أطلق عليها اسم: "النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكمال الناقص" وهو نفس الإتجاه الذي سار فيه كل من الشيخ الفكون القسنطيني ومحمد بن سليمان صاحب كتاب: "كعبة الطائفين" ورغم ذلك لم تكن الجزائر في خلو من التعليم، فعندما دخل الأتراك إلى الجزائر كانت هناك قاعدة من التعليم ترجع إلى العهد الحفصي في الشرق والزياني في الغرب.

كانت هذه أوضاع الثقافة في الجزائر ككل، إلا أن هناك أوضاع أخرى قد شهدتها مقرات الثقافة في الجزائر كالعاصمة، تلمسان، قسنطينة.



## قائمة المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- 01/- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق.
- 02/- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر، ج01، دار الهدى، الجزائر، 2009.
- 03/- نصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لولايات المغرب العثمانية، المرجع السابق.
- 04/- إحسان مختار الحواضر و الأمصار الإسلامية الجزائرية، ج05، دار الهدى، الجزائر، 2011.
- 05/- فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه ، جامعة محمد خيضر بيسكرة، الجزائر، 2015.
- 06/- ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح في مآثر مولانا الحسن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 07/- مؤيد محمود، أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني، م05، العدد16، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة تكريت، 2013.
- 08/- أحمد مبروش، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر، 2007.